

كيف وجدت العالم العربي؟

تقرير مرفوع إلى جزيرة العرب
للاستاذ أبي الحسن علي الحسنى الندوى



لقد كتبت وأنا متوجه إلى مصر ، وقد تحركت بنا الباهرة في ميناء جدة يوم السبت ١٢ ربيع الآخر سنة ١٣٧٠ هـ ٢٠ يناير ١٩٥١ م ، رداً على أيتها الجزيرة العربية فير مهمجورة ولا مملوكة ، فليست هذه الرحلة إلا في سبيلك وللإتصال بأمرتك المزينة المنتشرة على ساحل البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط ، أبلغها تحياتك وأرى ما فعلت الأيام بها بعد انفصالها عنك ، وما فعلت برسائلك التي حملتها عنك للعالم والأمانة التي تقلدها ، ثم أعود إليك إن شاء الله أحكي لك قصة هذه الأقطار الإسلامية العربية وما شاهدت في هذه البلاد من خير وشر ، وما رأيت لأبنائك من وفاء لك وبقاء ، بكل أمانة وصراحة ، فالرأى لا يكذب أهل ، ومن الكذب المهلك والحياة المردية المحملة في الأخبار والمباينة في التناول (١)

(١) يوميات سائح في الشرق الأوسط

من علك المليون ويطلب مليونين ، لأن ذلك يتعده مليون ، فهو يمن إليه ، ويتحسر عليه ، وأنت لا بنقصك شيء ، فحربوا هذه المظلمة في رمضان ، لا تفكروا في الطعام ، لا تترك موايد الملوك ، ولا ما احتوت الطعام ، ولا تفكروا بالنساء ، لا يترك حور الجنان

هذا رمضان يا أيها الإخوان ، فخذوا منه الصحة لأجسامكم ، والسمو لأرواحكم ، والحب لقلوبكم ، والعظمة لنفوسكم ، والقوة والذبل ، والبذل والفضل ، وخذوا منه ذخراً للعالم كله يكن لكم ذخراً

أعاده الله عليكم بالخير والنصر والإقبال

علي الظنطاري

وهذا أوران إنجاز الوعد

يسرنى أن أقول لك أيتها الجزيرة العزيرة أن أمرتك العربية لا تزال تنتمي إلى الإسلام ولا تزال تعتر بروبها ولا تزال تنسب نفسها إليك وترد دينها ولفتها إلى منبهما في ربوعك ، وتبدأ تاريخ حياتها الجديدة بيوم أشرق فيه النور من غار حراء فكان الصبح الصادق للعالم ، وقد احتضنت هذه البلاد تراثك الأدبي والثقافي وتبنت امتك وضممتها إلى صدرها وزادت في روتها زيادة لا تخاطر على بال منك ولا من شمراء جاهليتك ، ولا يسلمك عليها إلا الشكر والافتراق بالجيل ، وقد كانت هذه البلاد وفيه للفتك ، وفيه لقوميتك ، وفيه لثقافتك وفيه لتاريخك وإن أمرتك العربية لم تقطم صلها في يوم من الأيام من دينك الذي ماهدتها عليه وأوصيتها به يوم ودعتها وأرسلتها لتفتح العالم وتنفذه من الجاهلية . وكم حاول المساد أن تقطع هذه الأسرة الكريمة صلها عن الإسلام وترجع إلى جاهليتها الأولى أو تمنق الجاهليات الحديثة . وكم زيدوا لها الانسلاخ عن عقيدتها الإسلامية والانفصال عن الجامعة الإسلامية ، وأن تدين بالقومية العربية والوطنية الضيقة ، فلم تكن منها في كل عصر ومصر إلا أن ثارت روحها الإسلامية وهاجت غيرتها الدينية فازدادت إيماناً بهذا الدين وأحبطت مساعي الفسدين ، ولا تعرف من بين الشعوب والأمم أسرة أ أكثر وفاء وأعظم أمانة وأشد تعاقفاً بالماضي وغيرة على الأمة من هذه الأسرة العربية التي تسكن الشرق الأوسط الذي هو مجرى تيارات المدنية والفزوات السياسية ، فقد تطورت كل شيء وقد تطورت هي كذلك في ثقافتها وأدبها وحياتها تطوراً كبيراً ولكنها لا تزال متشبثة بدينها متمسبة لثقتها ، فليمنك أيتها الجزيرة من أبنائك هذا الوفاء وهذه الاستقامة

إن في العالم العربي كثيراً مما يسرك ويسر جيبك الأول لو بث ، فلا يزال الأذان تدوى به الآفاق ؛ ولا يزال التوحيد والرسالة المحمودة يملن بهما على الشرفات ، والصلوات تقام والقرآن يتلى بلحن عربى شجي لو سمعته أيتها الجزيرة لطربت له واعتقدت أنه لم يقرأ إلا في هذه البلاد ، ولو سمعت للمساء يفسرونه

لقد عانيت هذه البلاد العزيزة على هذا التحول كثيراً وحدثتها
حدث رجل لرجل ، ولكننا قالت لي : إن الجزيرة العربية هي
المسئولة عن هذا التحول ، فقد كانت مصدر الحياة والقوة والإيمان
والروح في العالم كله ، وقد كانت توزع الدم الجديد إلى شرايين
العالم الإسلامي وعروقه فضلا عن العالم العربي فشملت في العهد
الأخير بتصدير البترول عن تصدير دم الحياة الإيمانية ، واكتفت
بإستصدار البضائع الأجنبية عن توريد بضاعة الإيمان وغذاء
الروح إلى العالم . وجادات عنك أيتها الجزيرة العربية كثيراً
واقدم أوتيت جدلا ولكنها ألحقتني بالدلائل والأمر الواقع ،
فأنتصمها بما شئت وأدلت بمحبتك فأنا هي أمرتك ومن أقرب
الناس إليك

وسواء كان منك التصغير أولا ، وكنت المسئولة عن هذا
التحول المؤسف أم كان غيرك ، فإني أبشرك أني شاهدت في العالم
العربي طلائع نهضة إسلامية قوية شاملة ، وتباشير صبح صادق ،
فقد بدأ الرأي العام يستيقظ ، وبدأ القلق الشديد يستاور النفوس ،
والتذمر من الأوضاع الفاسدة يكاد يكتسح البلاد . وقد بدت
حركة رد فعل عتيقة ضد الحضارة الغربية وقيمها ، وظهرت آثار
ثورة فكرية سياسية ضد سيادة الغرب والوصاية العالمية التي
سلطها الغرب على العالم وفرضها على العالم العربي فرضاً ، واستمر
يتحكم في أمواله وكنوزه وخيراتة ، كأنه سفينة أو مجنون
أو طفل لم يبلغ سن الرشد ، فها هي الأقطار العربية قد بدأت تفهم
الحقائق وبدأت تواجه الغرب التنطرس كرجل كريم يؤمن
بشرفه وإنسانيته ويشمر بشخصيته وكرامته ، ورجل حتى يعرف
الغضب كما يعرف الرضا ويملك حق الثورة إذا وجدت لها موجبات
لقد بدأ العالم العربي يكفر بالغرب أحيانا بعد ما آمن به
طويلا وخضع له طويلا وربط نفسه بمجائته فأصبح يرى نفسه
مستقلا ، وعضوا كرميا في أسرة العالم ، يعلم الفساد من المصلح ويميز
بين الصديق والعدو ويحفظ بحقه في المصلح والحرب والخطف
والصدافة

لقد بدأ بعض الأقطار العربية يرنو إلى التقدم الصحيح
والاستقلال الصادق . قد بدأ يفهم أهمية الصناعات الوطنية

ويتكلمون في موضوع ديني اتوجهت أنه لم يفهم إلا في هذا
العصر ، والعالم يخدم وينشر ، وفي كل يوم يتدفق سيل من
المطبوعات الدينية لا يقل في الفيضان عن الزيت الذي يتدفق
من شرفك إلى غرب العالم
هذا كله مما أشهد به وأهنتك عابه ، فقرى عيننا وطيبى نفسنا
يا أم العالم العربي ؛ فن أحق منك بالسرور على ذلك ومن أجدر
منك بالتهنئة ؟

ولسكنى وعدتك وأنا أودمك على ميناء جدة أنى لا أخفى
عنك شيئا وأنى أحمل إليك في رجوعي كل حلومر ، وأروى لك
من رحلتي ما يسوه ويسر ، وقد بما قلت : أنجز حرما وعد

لست أدري أيتها الجزيرة العزيزة كيف أعبر عن شعوري
المزدوج الركب ، وكيف أصف لك ما وجدته وما افتقدته في هذه
الرحلة الطويلة ، وكيف أسود الماني التناقضة وكيف أجمع لك
بين آلام وآمال . إن أستشير أولا كلمة لشاعر مؤمن من بلادى
قد زار العالم العربي قبلى ورجع منه حزينا يخلص رحلته في بيتين
من شعر ، ذلك الشاعر هو الدكتور محمد إقبال الذى يقول :

لم أسمع في مصر ولا في فلسطين ذلك الأذان الذى ارتجفت
له الجبال بالأمس . إن السجدة التى كانت تهتر لها روح الأرض
لقد طال عهد الحراب بها واشتاق إليها المسجد كما تشتاق الأرض
الجديدة الخاشعة إلى الطر

لا يخفى عليك أيتها الجزيرة أن مصدر هذا الأذان الذى
كانت الجبال ترتجف له ارتجافا وهذه السجدة التى كانت الأرض
تهتر لها اهترزا ، إنما هو القلب الناقض بالإيمان ، المتلى بالحب
والحنان ، الجرى على الموت ، الحريص على الشهادة ، الزاهد فى
الهدنيا ، الستمين بالمادة ، وقد ضعف هذا القلب من مدة طويلة
وجنت عليه المادية الغربية والتعليم المادى فأفقدته كثيراً من
حنانه وحرارته وخفقانه ، وتأثرت بهذا التحول الحياة فى كل
ناحية من نواحيها ومظهر من مظاهرها وعم المسجد والدرسة
والمدرسة والسوق ، وشمر به كل من لم يفقد شعوره حتى قام
بالأمس أمير الشعراء شوق فى دمشق يقول

فلا الأذان أذان فى منارته إذا نال ولا الأذان أذان

وكأثر من الآثار المتبقية أو كشجرة قد انتهى نموها وانقطعت
أثمارها، إنما ينظرون إليه كمنبع فيض يتمدون منه القوة
والحياة، وكشمس ساطعة يقتبسون منها النور والحرارة في كل
زمان ومكان، ولا قديم في الشمس ولا جديد، إنما هي
حاجة الإنسانية الدائمة ورسول النور والحياة في كل عصر
ومصر، وبينما كان ينظر إلى الدين كقضية شخصية لا دخل لها
في الحياة العامة، ولا رسالة لها للسياسة والاجتماع، ولا صلة لها
بالحكم والنزيب، أصبح ينظر إليه كمنبع للحياة ومنهج
للتفكير تتوقف عليه سمادة البشرية، وتنهج به عقد المدنية
الحديثة. إن الإسلام لا يعيش على هامش حياتهم إنما يحمل منهم
محل القلب والعقل والروح، إنهم لا ينظرون إليه كدين، من
الاديان الكثيرة وكنهج للحياة من مناهجها الجديدة، إنما
ينظرون إليه كالدين الحق الوحيد الذي لا يبقى بعده إلا الضلال
ولا يرغب عنه إلا من سفه نفسه. هؤلاء هم الذين قام بهم الإسلام
في عصره الأول وسيقوم بهم في هذا العصر

وأعجب ما رأيت هو قوة هذا الإيمان وجدته في الشباب المتملم،
فقد رأيت هذا الجيل الجديد يكاد يفوق الجيل القديم في قوة
الإيمان والحاسة الدينية، رأيتهم يقبل على الدين كنعمة جليلة
أوطرفة عينة، ويذكرونا بسروره وتقديره أو تلك الزواد المقامرين
الذين كانوا يخرجون لاكتشاف البحار والأقطار المجهولة
ويتكبدون في سبيله من المصائب ما يشيب لهولها الولدان، فكان
إذا نجح أحدهم في مهمته ملكه الفرح واعتزته نشوة الانتصار
ونسى ما أتى في طريقه من التعب والنصب واعتبر ما اكتشفه
فتحاً جديداً في حياته وأعز من كل ما يملكه من قديم وما يلم
من قديم، رأيت في هذا الشباب من الشجاعة الأدبية ومن الثقة
بالدين ونعالجه والإعجاب بشخصياته التاريخية ومن التطلع إلى
النظام الصالح ومن روح التضحية والإيثار والثورة على للنظم
الجائرة والأوضاع الفاسدة والتمرد على المادة ومكياثيلية المجتمع الزائفة
ما يندرج وجوده في الجيل القديم. لقد قرت بهم ميني وأنشروحت
لهم نفسى واجتمعت بهم وحادثتهم كثيراً في عواصم الشرق
الأوسط، وقلت: هذا هو الجيل المنتظر الذى سببهم بالشرق
ويرد إليه قوته، وزعامته إن شاء الله

والإنتاج والاكتفاء الذاتى والاستغناء عن البلاد الأجنبية في
مرافق الحياة، وقد بدأ بعض هذه الأنظار بخطو نحو هذه الغاية
وإن كانت هذه الخطوات بطيئة وقصيرة، خطوات رجل مثقل
يئن من أقال القديم، ولكنها بدأت تزحف كما يزحف الطفل
بعد ما بقيت مدة طويلة تاهو عما كان الثرب يرى إليها من
ودعات، وبما يصدر إليها من بضائع وآلات. لقد بدأت الأقطار
العربية تتعلم صناعة اللوت بعد ما جهلها طويلاً وهجرها طويلاً،
وأصبحت تعتقد أنه لا يعيش في العالم إلا من يستطيع أن يموت
وأعظم ما يبعث الأمل في النفوس ويبشر بالمتقبل الإسلامى
هو ظهور آثار الإيمان الجديد في العالم العربى، فانك تلمين أيتها
الجزيرة العربية حق العلم أن أسرتك الكريمة ليست في حاجة —
وكذلك العالم البشرى كله — إلى دين جديد، فإن الدين الذى
جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو الدين الخالد والرسالة الأخيرة،
وأنة لا يزال على جدته وقوته مهما تقدم الزمان، وأنه يسع العالم
كله والمصور كلها، ولكن أمرتك التى تدين بهذا الدين في
حاجة مانحة اليوم إلى إيمان جديد بهذا الدين الخالد، دين كل
عصر وجيل، فقد ضف هذا الإيمان، وقد تجددت فنن،
ونشطت دعوات متطرفة وقويت، وكثرت النكبات، ولا
يمكن أن يواجه العالم العربى هذه الفنن، وهذه الدعوات، وهذه
النكبات بإيمان ضئيف بال، لا يستطيع أن يتحمل صدمة،
أو يتغلب على شهرة، أو ينتصر على أنانية، أو يتحمل شهدة،
أو يقف في وجه دعوة، إنما هو إيمان منهار لا يستطيع أن
يعيش ويتأسك في عصر قد جد فيه الجد

ولكنى رأيت في الأقطار التى مررت بها في هذه الرحلة
بواكير إيمان جديد وطلائمه. لقد رأيت إيمانا قويا وثابا، لقد
رأيت فتية وصفهم بهم قديما بقوله «إنهم فتية آمنوا بربهم
ززداناهم هدى، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب
السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططا.
هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان
بين، فن أنظ من افترى على الله كذبا» هؤلاء الفتية الأقوياء
في إيمانهم — وإن كانوا كباراً في سنهم — الذين يمتزون بهذا
الدين أكثر ما يمتزون بشي، إنهم لا ينظرون إليه كمرث قديم